

الأقلية المسلمة و الهوية المضطربة في المجتمعات الأوروبية

الأستاذ: حسان بن نوي جامعة المسية
Benhassen1964@Gmail.com

ملخص:

أدى التحول التدريجي مطلع العقد الأخير من القرن الماضي للعقيدة الأمنية الأوروبية إزاء الهجرة لمنطقة البحر الأبيض المتوسط بعدما ظلت لعقود لا تعدو مسألة إجتماعية و اقتصادية إلى أمنة الهجرة و صار ينظر للمهاجرين على أنهم مصدر خطر و تهديد يحملونه من منظومات ثقافية و حضارية تؤثر على قيم و معايير المجتمعات الأوروبية، و تهدد الهوية الثقافية و الاستقرار الداخلي، باعتبار أن الأقليات المسلمة متمسكة بعاداتها و تقاليدها وموروثاتها الحضارية و ترفض الاندماج في ثقافات المجتمعات التي استضافتها. الأمر الذي يتطلب رؤية معمقة وقراءة ابستمولوجية للكثير من محتويات الخطاب الإسلامي في أوروبا وتحديدًا لبعض المفاهيم المرتبطة بعناصر الهوية الإسلامية.

يتصل اندماج المسلمين في المجتمعات الأوروبية بعدة جوانب منها السياسية والاجتماعية والدينية، ومنها المرتبطة بالطبيعة التكوينية للمسلم في أوروبا وأخرى مرتبطة بمنظور وسلوك الأوروبي اتجاه المسلم.

هذا المقال يرصد أهم المعوقات المرتبطة أساسًا بهوية الأقليات المسلمة عرضًا وتحليلًا، في ظل المتغيرات الدولية الراهنة وقراءة للأحداث وفق مختلف المفاهيم والمنظورات المتعلقة بالأقليات المسلمة.

الكلمات المفتاحية: الهوية . الأقلية المسلمة - المجتمع الأوروبي

The Muslim minority and the turbulent identity of European societies

abstract:

In the last decade of proceeded century the gradual swift of European security creed towards the immigration to the Mediterranean countries lead to the immigration security after being just a social and economic issue for decades. As a result , the immigrants who holding cultural and civilized organizations that affect the European societies' values and standards and threats the cultural identity as well as the local stability they were considered as a source of danger and threat. This view which is attached to those immigrants emerged because the Muslim minorities were seen as a people who are strongly adhered to their traditions, customs and cultural heritages and they refuse to be assimilated in the society where they immigrate. The corollary of that situation, is a deep view and an epistemological reading to the contents of the Islamic preaches in Europe especially what is related to the Islamic identity.

The integration of Muslims in European societies is related

Key words: The identity _ The Muslim identity _ The Muslim minority

مقدمة:

يعد تنوع الأقليات الدينية أو اللغوية أو العرقية ظاهرة طبيعية من منظور التجانس الحاصل بين وحداتها واندماجها في الإطار الكلي للمجتمع أو من منظور آخر تبرز فيه مؤشرات اللاتعايش الناجمة عن وجود ظروف عدم التجانس المجتمعي. حيث شكل عنصر التعايش السلمي بين مختلف الوحدات عبر التاريخ وفي مختلف المجتمعات أحد المصادر الأساسية للثراء الثقافي والاجتماعي في ظل إرساء قواعد المساواة وعدم التمييز وتكافؤ الفرص.

تواجه الأقلية المسلمة في المجتمعات الأوروبية تحد كبير مرتبط أساسا بتعرض العقيدة والقيم الشخصية وكذا النسق المعرفي للتهديد الذي مبعثه الأساس المنظومة التعليمية الأوروبية. يمكن اعتبار أن أبرز التحديات التي يعاني منها مسلمو أوروبا مردها إلى معوقات ترتبط أساسا بالتكيف والاندماج في المجتمعات الأوروبية وإلى صعوبة التوفيق بين الالتزام بعناصر الهوية الإسلامية من جهة وبين هوية الانتماء إلى مجتمع أوروبي يعيشون فيه، وبروز صور الخلاف بين الأجيال داخل الأسر خاصة بين الآباء الوافدين والأبناء المولودين في الدول الأوروبية.

لا شك أن دائرة صراع الهوية والانتماء التي يعيش داخلها معظم مسلمي أوروبا اليوم معقدة ومرهقة من حيث تعدد أبعادها وجوانبها، مما يحتم عليهم الخروج منها والتفريق بين الانتماء للوطن الذي يعيشون فيه والذي تترتب عنه تحصيل حقوق المواطنة وكذلك الالتزام بالواجبات اتجاهه وبين الهوية الإسلامية التي تتطلب التمسك بعناصرها دون مغالاة ولا تقريط بعيدا عن كل سلوك مستنقذ للآخر. وهنا الحاجة ماسة لطرح جملة أسئلة دقيقة وحساسة.

- هل يشعر اليوم الأوروبي بالأمان اتجاه المسلم الذي يعيش بجواره أو معه؟
- هل يشعر الأوروبيون من أن المسلمين الذين يعيشون في مجتمعهم يريدون له الخير والازدهار؟
- متى يتحقق للمسلمين الأمن والأمان لدى الوعي الجمعي الأوروبي؟
- أسئلة تستوجب إجابات صريحة و جزئية فرضت نفسها خصوصا بعد أحداث اعتداءات 11 سبتمبر 2001، و هي المرحلة التي لخصها آنذاك العالم و الباحث الباكستاني "شيم خان" محذرا من " اختطاف الإسلام" (the language of Islam has been hijacked).

حيث صارت بقاعا من العالم الإسلامي والغرب تشهد ترسانة عنيفة تحمل إيديولوجية متطرفة غرست فيما بعد لدى الوعي الجمعي الغربي عموما والأوروبي خصوصا ما اصطلح عليه بالإسلاموفوبيا. يتوجب على الجمعيات والمؤسسات والمراكز وكذا الأفراد التفاعل الايجابي مع الواقع الأوروبي من خلال تحمل مسؤولية تمثيل الإسلام من جهة، وترسيخ عناصر هوية الأقليات المسلمة في أوروبا وتحقيق أهدافها من جهة أخرى، فعليها تقع مسؤولية فشل سياسات الاندماج وتأسيس قيم التنوع والتعدد دون أن يغفل دور ومسؤولية السياسات المختلفة للدول الأوروبية في هذا الفشل. كما يتطلب الأمر رؤية معمقة وقراءة ابستمولوجية للكثير من محتويات الخطاب الإسلامي في أوروبا وتحديدًا لبعض المفاهيم المرتبطة بعناصر الهوية الإسلامية.

ولأن واقع مسلمي أوروبا يمكن وصفه بالواقع الغير مستقر نتيجة الحيرة اتجاه الحفاظ على عناصر هوية مكتسبة من الآباء والأجداد مرتبطة أساسا بالوطن الأم، وضرورة بل مسؤولية الاندماج في مجتمع استقر العيش فيه، هذا الاضطراب الهوياتي لدى الجماعات والأفراد المسلمين في أوروبا يدفعنا لطرح الإشكالية التالية:

ما هي أهم المعوقات المرتبطة بهوية الأقليات المسلمة في المجتمعات الأوروبية؟

نجيب عن هذه الإشكالية من خلال عرض وتحليل للعناصر التالية:

1. أهم المفاهيم والمقاربات المسفرة للأقلية.

2. الأقليات المسلمة في أوروبا من منظور تاريخي.

3. الإضطراب الهوياتي للأقلية المسلمة في المجتمعات الأوروبية.

أ/ أهم الأطر المفاهيمية والنظرية المفسرة للأقلية المسلمة في أوروبا:

يعد تحديد الإطار المفاهيمي والنظري المفسر لأي دراسة خطوة مهمة في تفكيك المصطلحات وتأسيس الموضوعات المعروضة فيها، فتحديد المفاهيم المختلفة للأقلية المسلمة وتفكيك ارتباطاتها بمفاهيم مشابهة. وعرض مختلف الرؤى والتصورات حول تفسير حركية الأقليات المسلمة في أوروبا المبنية على الدراسات الإصطلاحية للأقليات وتطورها في المجتمعات الأوروبية، في إطار نسق مفاهيمي معرفي وتحليلي لمختلف المقاربات ذات الارتباط بالموضوع كمقاربة صراع الحضارات، والرؤية النمطية للإسلام في ظل الاستشراق والعولمة ودورها الرئيس في صناعة رأي عام أوروبي يخاف من الإسلام والمسلمين، وجدلية الهوية النمطية للمسلمين ومحاولات التكيف مع واقع جديد هوياتي مغاير. سنقوم بضبط مفهوم الأقلية ومفهوم الهوية من خلال مجموعة منظورات، المنظور الإسلامي والمنظور الغربي وكذا المؤسسات والمواثيق الدولية، كما سنحاول تحديد مجموعة من المفاهيم المرتبطة والمتشابهة معه تجنباً للخلط في الاستخدام.

1/ مفهوم الأقلية:

تعريف الأقلية : الأقلية لغة هي كلمة مشتقة مصدرها الفعل " قلل " ومنه القلة خلاف الكثرة، والقل خلاف الكثر ، وقد قل يقل وقلأ فهو قليل.¹

أما اصطلاحاً فلم تستخدم كلمة الأقلية في التاريخ الإسلامي كمصطلح له مفهومه ودلالاته إلا في إطار صراع الدولة العثمانية مع القوى الأوروبية، وذلك باستخدام الدول الغربية للأقليات الموجودة داخل الدولة العثمانية كوسيلة لتفتيت الدولة والقضاء عليها.²

وما يعرف به مصطلح الأقلية حالياً هو من خلال الدراسات والعلوم الإنسانية عموماً والسياسية خصوصاً " بأنها مجموعة تضم أقل من نصف مجموع أعضاء مجموعة أكبر منها ، وفي التصويت تكون أصواتها أقل من 50% من الأصوات التي يدلى بها".

أما في العلوم والدراسات الاجتماعية فتعرف بعدة تعريفات متقاربة منها: " الأقلية جماعة من الأفراد يختلفون عن الآخرين في المجتمع نفسه بسبب العرق أو القومية أو اللغة أو الدين ، وهم يتصورون أنفسهم

الأقلية المسلمة و الهوية المضطربة في المجتمعات الأوروبية أ. حسان بن نوي

جماعة ذات مضامين سلبية، وهم يعانون من نقص نسبي في القوة، ومن ثم يخضعون لبعض أنواع الاستبعاد والاضطهاد والمعاملة التمييزية المختلفة.³

تقدم الموسوعة البريطانية الجديدة تعريفاً: "الأقلية هي مجموعة متميزة ثقافياً أو إثنية أو عرقياً تعيش ضمن مجتمع أكبر، وهذا المصطلح عندما يستخدم لوصف مثل هذه المجموعة، يحمل داخله شبكة من الآثار السياسية والاجتماعية".⁴

ولأن المصطلح يستخدمه علماء السياسة والاجتماع فالأقلية بالضرورة خاضعة لمجموعة مهيمنة ضمن المجتمع، ووصف التبعية أو الخضوع أكثر من كونه عددياً، هو الأصل في التعريف والخاصية الأساسية المعرفة للأقلية.

يقدم المعجم النقدي لعلم الاجتماع تعريفاً للأقليات " تذكر أولاً بتجزئة مجموعة إلى مجموعتين داخليتين على الأقل، تكون إحدهما أكثر عدداً من الأخرى أو إذا كان ثمة أكثر من مجموعتين داخليتين، أكثر منها عدداً كلها".⁵

يركز تعريف المعجم على الديمقراطية ونموذج الحالة الأمريكية في تحديد وجود الأقليات وتطورها، فمع حدوث التمييز بين الأكثرية والأقلية يبرز السؤال، هل تتجم هذه التجزئة عن انقسام ما؟ وبالتالي تواجه الأقليات ثلاث استراتيجيات ممكنة، الولاء أي أن تبقى الأقلية داخل المجموعة وتمتثل لإرادة الأكثرية، أو الانفصال أو المعارضة. فالولاء أو المعارضة من صياغة منطري الأنظمة الديمقراطية باعتبارها النظام الذي تم فيه ترتيب العلاقات بين أكثرية المواطنين وباقي الجسم السياسي بطريقة تجعل التعايش السلمي بينهم ممكناً.⁶

هناك تعريف سوسيولوجي يركز على العلاقة الاجتماعية والتفاعل باعتبار أن الأقلية قد تحدد بغيرها حيث يرى (Klimloch): "الأقلية هي الجماعة التي تعرف على أنها مختلفة عن الأغلبية، حسب افتراضات مرتبطة بمعايير جسمانية أو ثقافية أو اقتصادية أو سلوكية ونتيجة لذلك تعامل وتضبط بصورة سلبية".⁷ كما شاع استعمال المصطلح على نحو يفيد وضعية فئات معينة في المجتمع، تقدم قضيتها على أنها نوع من النضال ضد أشكال التمييز والحرمان والاضطهاد الذي قد يكون مورس ضدها. فتعرف تعريفاً سياسياً: "الأقلية مصطلح سياسي جرى في العرف الدولي، يقصد به مجموعة أو فئات من رعايا دولة من الدول تنتمي من حيث الجنس أو اللغة أو الدين إلى غير ما ينتمي إليه أغلبية رعاياها".⁸ وقد يحمل مصطلح أقلية دلالات سياسية اقتصادية كأن يقال أحزاب الأقلية "الأقلية المستأثرة بالجزء الأكبر من الدخل القومي".⁹

وغيرها من المفاهيم المتداولة وعليه وجب الحذر من هذه الاستعمالات وملاحظة الفرق الشاسع بين الأقلية في المنظور الاجتماعي والاقتصادي وحتى النفسي إلى ميدان الدراسات السياسية والقانونية. كما أن صعوبة تحديد المصطلح هي من صعوبة تحديد وضع الأقليات، نظرا لديناميكية الأطر الزمكانية المحيطة بها. إذ توجد أقليات حققت ولو بعض الانسجام في وضعها السياسي والاجتماعي والقانوني يختلف عن تلك التي تعيش اضطهادا سياسيا وحرمانا اقتصاديا واجتماعيا. ورغم هذه الصعوبات إلا أنه تم تقديم بعض التعاريف لمصطلح الأقلية.

إن الأقليات تتحول إلى حركات اجتماعية، تسعى لاتخاذ مواقف محددة ومنها الصدامية، بقصد تأكيد هويتها والمطالبة بحقوقها الاقتصادية والسياسية والمساواة على أسس المواطنة مثلا. لتنتج ما يسمى بالحركات الانصهارية، والحركات الاندماجية، والحركات التعددية، والحركات الاستعلائية، والحركات الانفصالية، والوصول إلى هذه المواقف ينبع من رفض الأقلية لوضعها أو التمرد عليه، والبحث عن وضعية وعلاقات أفضل.¹⁰

3/ مفهوم الأقلية من منظور إسلامي:

راجت كثيرا كلمة أقلية في هذا العصر نتيجة كثرة الهجرات وتقارب العالم بعضه ببعض ويشير مدلولها إلى كل مجموعة بشرية في قطر من الأقطار تتميز عن الأكثرية في الدين أو العرق أو اللغة أو نحو ذلك...

من لوازم الأقلية أنها تكون عادة ضعيفة أمام الأكثرية، فالكثرة تنبئ عن القوة، والقلة تنبئ عن الضعف والقرآن الكريم يحدثنا عن الكثرة في معرض الامتنان والتذكير بالنعمة وذلك على لسان شعيب عليه السلام - حين قال لقومه: «واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم»¹¹ ونحو ذلك قوله تعالى في الامتنان على المهاجرين في غزوة بدر. ¹² «واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون»¹³.

والإسلام يشجع المسلمين لإقامة علاقات طيبة وأن يعالجوا مشكلة التكامل الإنساني بمفهوم واضح في فحواه أن هذه العلاقة لا تتم إلا في جو من المساواة والإنسانية والمحبة والالتزام بها بين البشر. إن الأمة الإسلامية كجزء من الأسرة البشرية تؤمن بالوحدة وبأن تقوم العلاقة بين البشر على أساس من المساواة والمحبة والأخوة الصادقة ويجب أن تلعب دور القدوة للإنسانية جمعاء التي هي في أمس الحاجة لهذه الأخوة الإنسانية اليوم وهذه المسؤولية هي مسؤولية الذين يعلمون.

إن نظرة الإسلام نظرة معتدلة متسامحة وواقعية في معاملتها لغير المسلمين وقد يكون عرض بعض الأمثلة لهذه النظرة المتسامحة مفيداً وخاصة في مجال الحياة الاجتماعية.

فالقانون الإسلامي يسمح بالزواج من الكتابية في دين تشكل الأسرة أحد المؤسسات الاجتماعية الأساسية فيه، وهذه الخطوة تمثل سماحة الإسلام إلى حد بعيد، كما أنه يسمح لغير المسلمين في الدولة الإسلامية بممارسة شعائهم الدينية بكل حرية مع توفير حياة آمنة لهم. كما يمكن أن يسهموا أيضاً في الدفاع عن الدولة، وكل ما عليهم هو دفع الجزية. ولا بد أن نذكر أنه ليس عليهم أن يدفعوا الزكاة كما هي على المسلم، بل إن لهم الحرية في تنشئة أطفالهم على دينهم وممارسة كل الشعائر والطقوس الدينية وحق التعلم والتجمع والقيام بالنشاطات الجماعية، التي لا تهدد أمن واستقرار الدولة¹⁴.

وكنتيجه لهذه النظرة الإسلامية تجاه غير المسلمين لم يكن هناك في التاريخ الإسلامي قتل جماعي لأقلية دينية في بلاد المسلمين بل إننا حتى اليوم نشهد وجود العديد من الجاليات غير المسلمة في قلب دار الإسلام منذ بدايته حتى أن لغاتهم ومؤسساتهم ما زالت باقية إلى اليوم، بينما لا يوجد أثر مشابه لوجود المسلمين اليوم في الأندلس على الرغم من بقائهم فيها حوالي ستة قرون!

باختصار فإن أهم حق أساسي للأقليات الدينية هو قبولها كما يفعل الإسلام حيث أن هذا القبول سيقود إلى حرية ممارسة الدين وحرية الثقافة واللغة والحفاظ على المؤسسات الدينية والأنظمة التعليمية المستقلة.

وقد يعترض البعض فيقول إن معظم الدول اليوم دول علمانية ولا تفرق بين مواطنيها على أساس ديني. وعليه فإنه ليس من الضروري اعتبار الدين عامل تمييز. ولكن علينا أن نتذكر أنه حتى في الدول العلمانية يلعب الدين دوراً أساسياً في النسق الثقافي سلباً أو إيجاباً، وعليه فإن قبول ثقافة أو دين الأقلية أساسي في معاملتها. حيث إنه من منطلق إذا لم تقبلني وأنا مختلف عنك ثقافياً فإنك لن تكون مستعداً لأن تعاملني وتحترم رأيي ومن ثم سوف لن تعتبر لي حقوق¹⁵!

4/ مفهوم الهوية:

لعل المفهوم اللغوي للهوية يرجع إلى الجذر الاشتقاقي لكلمة هوية من الضمير "هو" فقد تم وضعه كاسم معرف بـ أل ومعناه "الاتحاد بالذات" ويشير مفهوم الهوية إلى ما يكون به الشيء " هو هو"، أي من حيث تشخصه وتحققه في ذاته وتميزه عن غيره، فهو وعاء الضمير الجمعي لأي تكتل بشري، ومحتوى لهذا الضمير في نفس الآن¹⁶.

والهوية في مفهومها الاصطلاحي، قد تناوله علماء النفس والاجتماع والانثربولوجيا ونظرا للزخم الهائل من التعريفات التي تتقاطع بين النفسانيين والاجتماعيين والانثربولوجيين فإن تعريف Tap قد يكون ملما بعض الشيء لهدفنا من هذا الموضوع. إذ يقول: "الهوية هي مجموعة المميزات الجسمية والنفسية والمعنوية والقضائية والاجتماعية والثقافية التي يستطيع الفرد من خلالها أن يعرف نفسه وأن يقدم نفسه وأن يتعرف الناس عليه، أو التي من خلالها يشعر الفرد بأنه موجود كإنسان له جملة من الأدوار والوظائف

والتي من خلالها يشعر بأنه مقبول ومعترف به كما هو من طرف الآخرين أو من طرف جماعته أو الثقافة التي ينتمي إليها".¹⁷

أما مفهوم الهوية فنجدته متعلق بمفهوم الثقافة في مجمل التعريفات التي تناولته، فهو مفهوم ثقافي تاريخي يتكون لدى الفرد من خلال الثقافة التي يحيا فيها فدور الثقافة بكل ما تحمله من معاني هو تكريس هوية ثقافية من خلال عملية تمثل عاطفي واجتماعي مع عملية اندماج تاريخية وثقافية ونفسية واقتصادية تستغرق زمنا طويلا مما يؤكد أهمية التاريخ في خلق الهوية الثقافية بصفته الرحم الذي تنمو وتترعرع فيه لتتشكل في نهاية المطاف هوية ثقافية معينة نتيجة انتمائها لأمة معينة . يقول الدكتور منير الرزاز : " التراكم التاريخي ضروري لصنع الهوية الثقافية لأنها في النهاية هي المستوى الناضج الذي بلغته المجموعات البشرية نتيجة تفاعل قرون طويلة بين أفرادها وبين الظروف الطبيعية والتاريخية التي مرت بها والتي نسجت فيما بينها روابط مادية وروحية مشتركة أهمها وأعلىها رابطة الدين واللغة".¹⁸

وبهذا فمفهوم الهوية والثقافة وإن كان الاختلاف اللغوي بينهما واضحا فإننا قد لا نجد تعريفا اصطلاحيًا يفرقهما فالهوية أو الثقافة وحسب ما أثبتته الدراسات السوسولوجية والانثروبولوجية أن الهوية هي الإحساس بالانتماء إلى جماعة أو أمة لها من الخصائص والمميزات الاجتماعية والثقافية والنفسية والمعيشية والتاريخية التي تعبر عن نسيج أو كيان ينصهر ويندمج في بوتقته جماعة بأكملها وبذلك يصبحون منسجمين ومتفاعلين تحت وطأة تلك الخصائص والمميزات.

عناصر تشكيل الهوية: العناصر الأساسية التي تشكل الهوية خمسة هي:

أ/المعتقد أو الدين: هو المكون الأساسي والجوهر الثابت في تشكيل أي هوية، حيث أنه يحدد الملامح الأساسية لرؤية الفرد والمجتمع تجاه الكون والواقع والحياة، فهو يحدد المصير والمعنى والمتجه والهدف، ولا يوجد فرد بلا معتقد حتى لو كان ملحدا فالإلحاد في حد ذاته إعتقاد في عدم وجود إله، إذن نقول أن المعتقد هو أهم مكون في هوية أي شخص، وللإسلام تفرد خاص في هذا الشأن نظرا لتغلغل عقيدة التوحيد في كل أرجاء حياة المسلم فتصبغها بصبغتها، وعلى ذلك فلو تعرضت العقيدة والتصورات الإيمانيات في الإسلام لأي إنحراف أو طمس أو تشويش، فهو أكبر خطر يلحق بالهوية الإسلامية.

ب/ اللغة: فهي العنصر الثاني، ففي اللغة تسكن أفكار الفرد، وباللغة يعبر الفرد عن أماله وطموحاته وشخصيته وهويته، وعبر اللغة يتواصل أبناء الهوية الواحدة المشتركة، وعبر اللغة يكون التواصل بين الأنا والآخر

ج/التراكم التاريخي: ضروري لبلورة الهوية الجماعية .

د/ الوطن : المكان الذي ولدت فيه وترعرعت

هـ/ الثقافة : العادات والتقاليد والتعليم والموروثات التي ورثتها.

5/ تصورات ورؤى حول الأقلية المسلمة في أوروبا :

لقد تعددت التصورات والمنظورات حول علاقة الغرب عموما وأوروبا على وجه الخصوص بالإسلام والمسلمين، وما انتجت من افكار وسياسات كانت لها انعكاسات على طبيعة هذه العلاقات، ومنها على وجه التحديد مقارنة صراع الحضارات لـ " صمويل هانتينغتون" ونهاية التاريخ لـ " فوكوياما". وكذلك بعض

المقاربات التي أتى بها مجموعة من المستشرقين الغربيين والعرب. وحتى تتجح كثير المحاولات التي تهدف إلى التخويف من الإسلام ومعتقيه كان عليها أن تبتدع لنفسها تأصيلاً فكرياً، لكي يمكن لها تسويق بضاعتها بشكل دائم ومستمر، ولقد ارتكز.. هانتيغتون . في نظريته صراع الحضارات على عنصرين :

1- أن للصراعات المستقبلية خصوصية جديدة وأنها ستتم بين الحضارات وليس بين الدول والأمم، وهذا ليس بالجديد على الفكر أو التاريخ السياسي العالمي.

2 - الإدعاء بميل الإسلام نحو العنف والتطرف في الانتشار. وليس هناك من أساس علمي يدعم هذا الرأي في هذا الجانب.¹⁹

تعتبر فكرة صدام الحضارات التي قدمها صامويل هنتغتون في مقالته المنشورة في مجلة الشؤون الخارجية سنة 1993، والتي طورها في كتاب له في سنة 1996، من أخطر النظريات الصدامية التي أنتجها المفكرون في الغرب، لما تحملته من أفكار عنصرية تحت المجتمعات الغربية على مجابهة الحضارات الأخرى التي تختلف عنها، وعلى رأسها الحضارة العربية الإسلامية، حيث يقول هنتغتون في كتابه حول صدام الحضارات: "المشكلة الأساسية بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية، بل الإسلام، فهو حضارة مختلفة أفرادها مقتنعين بسمو ثقافتهم، ومهووسين بضعف قوتهم، الفرنسيين هم أكثر تعلقاً بثقافتهم من كونهم عنصريين." ²⁰

وبخصوص نظرة - هانتيغتون - للإسلام فهو يعلن توجسه من الخطر الإسلامي ويرى في ظاهرة الصحوة الإسلامية ما يدعم نظريته عن الاعتداد والتمايز الحضاري الذي يقود إلى الصدام الحضاري، بل أنه رأي الإسلام الذي قدمه لقرائه إسلاماً عدوانياً يناقض القيم الحضارية الأخرى. فهو يعد الإسلام حضارة كالحضارات الغربية وليس ديناً سماوياً، كما إنه لا يناسب القيم الديموقراطية، وعدوانياً بطبعه لأنه انتشر بحد السيف. بل إنه يذهب إلى الأبعد من ذلك حينما يخلط متعمداً بين الإسلام كدين وبين ظاهرة الأصولية الإسلامية متبنياً أحكاماً قيمية متحيزة وغير دقيقة ضد الإسلام مع تفهم زائف وأكثر إلتصاقاً ودعماً بدعوى (إسرائيل) ولوبيها المنتشر في الولايات المتحدة الأمريكية.²¹

إن الغرب الأوروبي- أمريكي لا يتصور وجود تجربة حضارية أو فكرية أو إنسانية جديرة بالوجود والحياة إلا أن تكون هذه التجربة متبنية أسس الفكر الغربي، وكل وجود حضاري مخالف لتجربته لا يعترف بها ولا يعطيها شرعية الوجود الحضاري وكل الطروحات التي تخرج على هذا السياق متخلفة ويعوزها التطور.

ومع انتهاء الحرب الباردة وسقوط جدار برلين 1989 خرج علينا متأمر ك الطبع والثقافة ويا باني الأصل "فوكوياما" بالدعوى القائلة إن ما تحقق من انتصارات للرأسمالية يكون نهاية لتاريخ الفكر الإنساني والثقافي، ونظريته تعد استتساخاً جديداً لما قاله المفكر "هيجل" في مطلع القرن التاسع عشر الذي دعا إلى بناء التاريخ الكوني على أساس الأفكار التي كانت تضج بها المركزية الأوروبية في مرحلة صعودها آنذاك وهي على أبواب النهضة الصناعية الأولى. لكن سرعان ما اختفت نظرية فوكوياما إزاء النقد الذي وجه لها لتفسح

الأقلية المسلمة و الهوية المضطربة في المجتمعات الأوروبية أ. حسان بن نوي

المجال لنظرية صدمات الحضارات والتي قاعدتها الأساسية أن الصراعات المهمة في السياسة الدولية ستكون بين الدول والجماعات التي تنتمي إلى حضارات مختلفة، وستهيمن الصدمات الحضارية على السياسة العالمية، وستكون ساحتها الأساسية خطوط التماس بين هذه الحضارات.²²

ولذلك دخلت الأدب السياسي مفردات مستحدثة تناولها الإعلام الغربي بالبحث والتدقيق ليبدأ تداول مفهوم الصدام "clach" ومفهوم الصراع "struggl" ومفهوم الهيمنة "domination" وغيرها بكثير من الهيبة والتوجس.²³

لذلك لا بد من الإشارة إلى ملاحظة أولية تتعلق بحالة الخوف الشديد التي تحكم العقل الأوروبي من خطر التقهقر والانحسار والخوف من الآخر نتيجة الإحساس بتعرضهم المستمر للخطر من الغير، ومن ثم الحاجة إلى تمييزهم واختلافهم عنه، وحتى اختيار تعبير "الغرب" كتعريف لهذه الكتلة الحضارية يثير في العقل الباطن لدى المواطن الأوروبي الاعتقاد بأن الخطر سوف يأتي من "الشرق".

ويرى (فوكوياما) أن الإسلام الراديكالي هو شكل من أشكال التعبير عن الهوية وهذا يفسر "لماذا تحول الجيل الثاني والثالث من مسلمي أوروبا إلى هذا النوع من التوجه"²⁴، ويحاول أن يضخم الموقف قائلاً "إن فشل أوروبا في دمج مسلميها بصورة أفضل هو قنبلة زمنية موقوتة والذي بالفعل أنتجت الإرهاب والعنف، والتي لابد أن تثير ردات فعل عنيفة من الجماهير الشعبية، وربما في وقت ما قد تؤدي إلى تهديد الديمقراطية الأوروبية ذاتها."²⁵

أما ما يهدف إليه المستشرقون في محاربتهم للإسلام لأجل الوقوف أمام انتشار مبادئه السامية وأفكاره النبيلة إلى الشعوب الأوروبية تحديداً، وتنقص بذلك مصداقية المسيحية واليهودية وكتبهم السماوية، هذا من جهة ومن جهة أخرى يهدفون إلى إضعاف مكانة الإسلام وكتابه القرآن في نفوس المسلمين، ومن ثم يسهل عليهم تنفيذ مخططاتهم الاستعمارية، ولقد أشار وليام إيوارت جلدستون إلى ذلك في قوله: "مادام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا يمكن لها أن تحقق الأمان."²⁶

لقد ساهم الإستشراق والمستشرقون في تشويه العرب والمسلمين، حيث قدموا للمجتمعات الغربية أفكارا خاطئة عن ثقافة وسلوك المسلمين باعتبارهم متخصصين بالشؤون العربية والإسلامية، وأبرزهم:

- غوستاف فون غرونباوم **Gustave Von Grunebaum** (1909- 1972): حيث ألف كتابان

هما الإسلام القروسطي: دراسة في الإستشراق الثقافي وهو مجموعة محاضرات ألقاها في الجامعات الأمريكية في 1945، والإسلام الحديث: البحث عن هوية ثقافية، وهو مجموعة مقالات كتبها ما بين 1952 و 1962. حيث يرى أن العرب في نظره هم قوم بلا ثقافة، وأن ثقافتهم لم تقدم أي إسهام نظري في المعرفة، وأن دينهم غير خلاق، غير قادر على التطور، إستبدادي، ومناهض للإنسانية، ولهذا فهو يتهم العرب بأنهم غير قادرين على التغير وعلى فهم طبيعتهم وتاريخهم وأنهم يتميزون بالخمول والسلبية، لذلك

فإن علاجهم الوحيد هو تلقي الإستنارة من الغرب المتطور، وقد سعى غرونوبوم إلى نقل أفكاره إلى طلبته، الذين تأثروا به واعتبروه المسؤول الأول عن جعل دراسة الإسلام فرعاً جامعياً متقدماً في أمريكا.²⁷

- برنارد لويس **Bernard Lewis** : أستاذ في الجامعة الأمريكية وهو أشهر الباحثين في حقل الدراسات الشرقية الأنغلو- أمريكية وأكثرهم نفوذاً وقد أثرت كتاباته في توجيه البحوث المتعلقة بالشرق الأوسط، فقد كرس برنارد لويس أغلب كتاباته لدراسة الإسلام، ففي كتابه حول العرب التاريخ يرى أن الحضارة العربية هي غير عربية وأن العرب ليس لديهم حضارة، كما يرى في كتابه حول الشيوعية والإسلام أن الإسلام ذو طبيعة استبدادية، عدوانية غير ديمقراطية، ويرى أن الإستبداد عنصر مشترك بين الشيوعية والإسلام، وهنا لا يفوتنا التذكير بمدى إسهام برنارد لويس في تجسيد فكرة صدام الحضارات التي تبناها هنتغتون، حيث كان أول من كتب عن فكرة الصدام بين الحضارتين الغربية والإسلامية في مقالة صدرت له بمجلة *The atlantic Monthly* بعنوان "جذور الغضب الإسلامي" في 1990، حيث تبنى هنتغتون طرح لويس ليصوغها في نظرية صدامية بين الحضارات. إن المكانة التي يحتلها هؤلاء المستشرقين في المجتمعات الغربية، باعتبارهم أعلم الناس بالمجتمعات الشرقية العربية والإسلامية، ونزعتهم الشديدة في محاربة المسلمين والإسلام، سمح لهم بتغذية عقول الحكومات والشعوب الغربية بأفكار مغالطة عن المسلمين وسلوكهم، وأنتجوا صورة سلبية عن الإسلام، تلقتها الشعوب الأوروبية والغربية عموماً وأصبحت تنقيد بتعاليمها في التعامل مع الآخر العربي المسلم.²⁸

- هناك من رجال السياسة والمسؤولين في بعض الدول الأوروبية الذين كانت لهم مواقف ودعوات في اتجاه النظرة الإيجابية من الإسلام نذكر منهم:²⁹

- الأمير "تشارلز" في أكثر من مناسبة وأهمها حديثه في مركز الدراسات الإسلامية في جامعة أكسفورد في أكتوبر 1993 الذي لفت انتباه الكثيرين ، وقوبلت بترحيب كبير من الأوساط الإسلامية ، وكشفت عن اطلاع حسن للإسلام ، وما قدمه من عطاء حضاري استفادت منه الإنسانية كافة ، وفي حديثه انتقد "تشارلز" منهجية النظرة الغربية للإسلام .

ومع أن الحداثة في مفهوم الغرب تعني القطيعة مع الماضي، وأن التراث لا يمثل مرجعية معرفية في حاضره في قراءة الأفكار والمناهج والنظم والأحداث، إلا أنه في علاقته بالإسلام لازال مسكوناً بالماضي إلى حد كبير، والتعاطي معه مصحوباً بالتوجس، فالحروب الصليبية التي عرفت بهذا الاسم في الخطاب الغربي، وحروب الفرنجة في الخطاب العربي والإسلامي، والتي دامت أكثر من قرنين من الزمن ابتداء من 1095، لازال الغرب إلى هذا اليوم يستعيد ذاكرة هذه الحروب، وهي حاضرة حتى في مناهجه التي يغذي بها الأجيال الجديدة. كما يوجد في جنوب فرنسا، وهو المكان الذي انطلقت منه الحملة الصليبية الأولى، جمعية تعقد اجتماعاً سنوياً في مكان انطلاق الحملة. ويتم في هذا الاجتماع السنوي إلقاء الخطب المحاكية لذلك التاريخ، كما يتم بعد هذه الخطب إعادة تمثيل انطلاق الحملة الصليبية الأولى.³⁰

تعد هذه أسوأ ذاكرة تشوه صورة الإسلام عند الشعوب الأوروبية والغربية عموماً وخاصة عند الأجيال الجديدة التي كان ينتظر منها التخلص من ثقل هذه الذاكرة السيئة، والتي تدفع بها إلى استعلاء الإسلام، بدل البحث عن نظرة جديدة تتخذ من المستقبل منظوراً لها، وحاضراً نحو علاقات أفضل، باستعادة ذاكرة المكتسبات الحضارية الكبيرة التي استفادت منها أوروبا خلال الحضارة الإسلامية وهي كثيرة ومتنوعة.

إن تواجد المسلمين في قلب الصراعات التي ضربت دول جنوب شرق أوروبا في العقد الأخير، قد غدّى عدداً من الشكوك حول حقيقة وجود صراع بين الحضارات أو الثقافات، وقد وجدت أطروحات صامويل هنتنغتون وروبرت كوبلان في هذا الصدد أرضاً خصبة في منطقة البلقان؛ حيث يلتقي مثل هذا الخطاب المشحون والشاحن مع الصورة النمطية المرسومة سلفاً للخلافة العثمانية أو حول دور دول البلقان في حماية المسيحية من هجمات الإسلام.

وقد يجد هذا الخطاب المخوف من الإسلام بعض امتداداته في نظريات تدعي العلمية وتحذر من خطر أخضر داهم أو من محور إسلامي، أو أيضاً الخوف من إعلان ما سُمي بالجهاد الديموغرافي في البلقان وهو ما يخفي وراءه فكرة مخيفة تهدف إلى نزع المشروعية عن الوجود الإسلامي في البلقان، وتغذي النهج الطامح إلى محاولات اجتثاثهم من المنطقة بدعم روسي غير خفي وصمت غربي متواطئ وتدخل أميركي محسوب، وهو ما أدى وسيؤدي في الغالب إلى عمليات التطهير العرقي التي أضحت بضاعة بلقانية بامتياز³¹.

II / تطور وأسباب الوجود الإسلامي في أوروبا:

إن طبيعة الوجود الإسلامي في الغرب شهدت تحولاً، فمن مجرد عمال مهاجرين يبحثون عن العمل والإقامة المؤقتة تحول المسلمون إلى جزء من التركيبة المجتمعية السكانية، ويمكن القول بأنهم تحولوا من جالية مسلمة إلى أقلية مسلمة . ولعل نشأة الشباب المسلم في الغرب جعلته أسهل وأسرع في تقبل مثل هذا الخطاب الجديد، فأصبح يتجه لأن يكون جزءاً من هذا النسيج. ولم لا وهو الذي وُلد ودرس هناك، ولا يتقن جيداً إلا هذه اللغة الأوروبية أو تلك؟! غير أن الأمر لا يبدو كذلك عند الحديث عن الاتجاه العام للمسلمين في أوروبا؛ حيث لا تزال الغالبية لا تشعر بأنها جزء من المجتمعات الأوروبية، ولا تجد همومها ضمن هذه المجتمعات، وحتى الأجيال الجديدة على الرغم من حملها جنسية هذه البلدان إلا أنه ما زال يُنظر إليها من الرأي العام الأوروبي على أنهم أجانب أو مهاجرون.

1/ الأقلية المسلمة في أوروبا من منظور تاريخي:

مع سقوط غرناطة انحسر الوجود الإسلامي عن القسم الأكبر من أوروبا الغربية. ولكن نشوء السلطنة العثمانية وامتداد فتوحاتها وحكمها غرباً أقام في جنوبها وشرقها وجوداً بشرياً ودينيّاً إسلامياً ما زال قائماً حتى اليوم، في البوسنة وكوسوفو وألبانيا، وغيرها. وفي القرن التاسع عشر وإثر استعمار بعض الدول الأوروبية، كفرنسا وبريطانيا على الأخص، لدول وشعوب عربية وإسلامية في أفريقيا وآسيا، وإدخال أعداد كبيرة من أبنائها في قواتها المسلحة، من سنغاليين وهنود مسلمين ومغاربة، راح عدد المسلمين المقيمين في

أوروبا الغربية يتزايد، ولكن دون أن يبلغ حجمًا ملحوظًا. وفي النصف الثاني من القرن العشرين، ومع افتقار الدول العربية والإسلامية المستقلة إلى فرص عمل، وحاجة الدول الأوروبية الخارجة من الحرب إلى أيد عاملة، لنرى هجرة واسعة من دول المغرب خاصة وتركيا والدول الإسلامية عموماً إلى أوروبا، وليصبح (الوجود الإسلامي) فيها ملموساً. وعندما سمح للعمال العرب والمسلمين المقيمين باستحضار عائلاتهم والاستفادة من كسب الجنسية لأولادهم الذين يولدون على أرض أوروبية، تدفقت موجات الهجرة من كافة أنحاء العالمين العربي والإسلامي إلى الغرب الأوروبي، وأصبحت الجاليات الإسلامية تعد بالملايين بعد أن كانت في مطلع القرن العشرين تعد بعشرات الآلاف.³²

يعود وجود المسلمين في هذا الجزء أو ذاك من القارة الأوروبية إلى حقبة بعيدة في تاريخ الإسلام ، فالتجار والديبلوماسيون شكلوا على مر العقود سمة مميزة للعديد من الأماكن وخصوصاً في أوروبا الوسطى والجنوبية. لكن يمكن رصد ثلاث حقبات مختلفة لوجود الجاليات المسلمة في القارة الأوروبية.³³

الحقبة الأولى: حقبة إسبانيا الإسلامية والحكم الإسلامي لصقلية وجنوب إيطاليا، فقد وضع النورمانيون حداً لهذا الحكم في القرن الحادي عشر ، فيما استعاد الغزاة الإسبان في العام 1492 آخر موطنٍ قدم إسلامي في إسبانيا ، ولم يبق اليوم من تلك الحقبة سوى مساهمتها الغنية في مختلف جوانب الثقافة الأوروبية.

الحقبة الثانية : جاءت نتيجة انتشار جيوش المغول خلال القرن الثالث عشر ، وبعد بضعة أجيال فقط ناعتقت الدول التي انبثقت عن هذا الانتشار الإسلام . وتمثلت إحدى هذه الدول بخانات القبيلة الذهبية التي قامت على ضفاف نهر "ال فولغا" "Volga" شمالي البحر الأسود وبحر قزوين. وإذ ذاك استوطنت مجموعة من السكان المسلمين المنتمين إلى جماعات تترية متنوعة بشكل دائم في الأرض الممتدة من "ال فولغا" نزولاً باتجاه القوقاز والقرم، وفي مرحلة لاحقة جاب العديد من الأفراد بصفتهم جنوداً وتجاراً اعتادوا التجوال والترحال أرجاء الامبراطورية الروسية ، وأقاموا المستعمرات في أماكن مثل فنلندا والمنطقة التي تمتد اليوم بمحاذاة الحدود بين بولندا وأوكرانيا.

الحقبة الثالثة: تمثلت بمرحلة الانتشار العثماني في البلقان وأوروبا الوسطى ن حيث استوطنت مجموعة تركية لا تزال تعيش في أنحاء من بلغاريا ويوغسلافيا سابقاً ورومانيا واليونان ، والواقع أن الكثير من الرعايا العثمانيين اعتنقوا الإسلام ، مما جعل ألبانيا تتحول إلى دولة ذات أكثرية إسلامية، كذلك أسلمت مجموعات سلافية في البوسنة والهرسك وفي بعض أنحاء بلغاريا.

- نلاحظ أن الهجرة الكبيرة للجاليات المسلمة إلى أوروبا الغربية كانت إبان الحرب العالمية الثانية والتي يمكن اعتبارها حقبة رابعة علماً أن أسس هذه الحقبة كانت قد أرسيت قبل ذلك بكثير .

- نشير إلى أن الوجود الإسلامي في أوروبا ينبغي أن لا يشكل قلقاً للأوروبيين ، ومن الأفضل لهم أن يتعاملوا معه بإيجابية وانفتاح ويستفيدون منه كرافد ثقافي بإمكانه تقديم الإضافة الإيجابية للحياة في أوروبا .
- كما أنه ليس من السليم على الوجود الإسلامي في أوروبا أن ينظر إلى ذاته على أنه وجود غريب لا خيار أمامه إلا الانكفاء والانعزال ، ، والأصح أن يتواصل مع الواقع هناك، ويسجل لنفسه الحضور

الأقلية المسلمة و الهوية المضطربة في المجتمعات الأوروبية أ. حسان بن نوي

الإيجابي والحضاري ، ويبرز ما عنده من فاعلية وأطروحات تحتاج إليها الحياة هناك حتى يصل بقناعات تلك المجتمعات إلى حاجتها لهذا الوجود وضرورته الحيوية والتكامل معه مع الاحتفاظ بخصوصياته.³⁴

- فالوجود الإسلامي في أوروبا تقع على عاتقه صياغة منظور معرفي جديد يؤسس لعلاقات مستقبلية إيجابية بين الإسلام والغرب عموما.

إذا نظرنا إلى الإسلام في منظور تاريخي واسع ،يساعد هذا بالتأكيد لفهم مراهن لحضور الإسلام المعاصر في أوروبا . ومعرفة التاريخ تسمح لفهم تام للحاضر ويساعد لايجاد حلول حسنى لمشقات المستقبل. يمكن اثناء التاريخ تمييز بعض السمات المعينة في الاتصالات المتبادلة بين المسلمين وأوروبا.

2/ - أسباب وجود الأقليات المسلمة في أوروبا:

تشير الإحصاءات العامة إلى وجود عدد كبير من المسلمين في أوروبا الغربية قد تصل تقديرا إلى ما يقارب 15 مليون مسلم، ويمكن إرجاع أسباب تواجد هذه الأعداد من المسلمين في أوروبا الغربية إلى عدة أمور منها:³⁵

1- تزايد أعداد القوى العاملة المهاجرة خاصة من الدول الإفريقية والآسيوية الفقيرة مما يمكن إرجاعه إلى العوامل الاقتصادية من تدني لمستوى المعيشة في الوطن الم مقابل الازدهار الاقتصادي المتنامي المغربي في الدول الأوروبية.

2 - التحاق كثير من المسلمين بالجامعات الأوروبية لاستكمال الدراسة الجامعية أو لمتابعة الدراسات العليا على مستوى التخصصات العلمية المتنوعة .

3 - دخول أعداد كبيرة من أبناء المجتمعات الأوروبية في الإسلام.

4 - وجود مسلمين من سكان البلاد الأصليين ممن ينحدرون من أصول شرقية هاجروا قديما إلى الدول الغربية ، مثل تواجد الأتراك في أوروبا ،وخاصة في ألمانيا.

5 - انتقال أعداد من المسلمين للعيش بالدول الغربية فرارا من الاضطهاد والتضييق من السلطات والحكومات في بلادهم بسبب انتمائهم لجماعات أو أحزاب محصورة أو محاربة في دولهم.

- يضاف إلى ذلك أن استقرار هذه المجموعات في أوروبا لعقود وتكوين أسر وعائلات عامل من عوامل تزايد المسلمين ممن ولدوا ونشئوا في أوروبا.

تمر الأقليات الإسلامية في البلدان الأوروبية بمرحلة صعبة ثقافيا واجتماعيا وسياسيا، فهي مبعث الإتهام والإعتقال في حال وقوع حادث إرهابي، والعكس تماما في حال اقتربت مواعيد انتخابية لتصبح محل استقطاب اليمين واليسار ... كما يشكل تنامي هذه الأقليات حذرا شديدا داخل الأوساط الأمنية في أوروبا.

الوجود الإسلامي في أوروبا صار حقيقة واقعة ينبغي التعامل مع إشكالاته بواقعية وفق منظور يرصد حقيقة المعوقات التي تواجه الأقليات المسلمة على جميع الصعد، و يرتب الحلول وفق معطيات بيئة كل بلد أوروبي ،دون إغفال التحولات الدولية الراهنة و تأثيراتها.

يثبت المؤلف "فريد موهيتش" في مضمون كتابه " المكونات الإسلامية لهوية أوروبا " أن هوية أوروبا تشكل منذ 1300 عاما عن طريق تفاعل مؤثرات ثقافية متعددة و متنوعة، مع دور مهيمن لعناصر ثقافية هي

الأقلية المسلمة و الهوية المضطربة في المجتمعات الأوروبية أ. حسان بن نوي

نتاج الحضارات اليهودية و المسيحية و الإسلامية، وأن أصول هذه الديانات التوحيدية الثلاث ومهد ولادتها هو قارة آسيا، و بالتالي فكلها وافدة على القارة الأوروبية، و هي حقيقة تنزع من كل تلك الديانات حقها في الإدعاء بحصرية تمثيلها لهوية أوروبا الثقافية دون غيرها.³⁶

أدى التحول التدريجي مطلع العقد الأخير من القرن الماضي للعقيدة الأمنية الأوروبية إزاء الهجرة لمنطقة البحر الأبيض المتوسط بعدما ظلت لعقود لا تعدو مسألة إجتماعية و اقتصادية إلى أمنة الهجرة و صار ينظر للمهاجرين على أنهم مصدر خطر و تهديدها يحملونه من منظومات ثقافية و حضارية تؤثر على قيم و معايير المجتمعات الأوروبية، و تهدد الهوية الثقافية و الاستقرار الداخلي، باعتبار أن الأقليات المسلمة متمسكة بعاداتها و تقاليدها وموروثاتها الحضارية و ترفض الاندماج في ثقافات المجتمعات التي استضافتها.

تزامن ذلك مع تصاعد نشاط اليمين المتطرف في أوروبا، الذي يحمل العداء للأجانب و يرفض التعايش مع الأقليات و فكرة التعددية الثقافية ويستमित في الدفاع عن الهوية " أثنو- وطنية " و يكرس في العقل الباطن للمواطن الأوروبي الثنائية الإرتباطية (هجرة - إرهاب) و هي ثقافة متعلقة بتشكيل خطر حقيقي على مستقبل استقرار أوروبا.

III / الأقليات المسلمة و تعقيدات الهوية في أوروبا :

كما سبق مفهومنا للهوية على أساس أنه مركب من مدلولات ومميزات تصنف الفرد والجماعة والأمة عن غيرها. فهي خليط منسجم حاملا لقيم ومبادئ وتقاليد وفكر وثقافة موروثة. ونتيجة التوظيف السيئ للمفهوم أدى بالكثير من الأوروبيين إلى العمل على ترسيخه كثنائية قطبية حادة (أنا - الآخر) و السؤال الذي يطرح نفسه هل بدعوى الحفاظ على الهوية يتم رفض الهويات الأخرى و محاربتها و نعت أصحابها بالخطر والإرهاب وغير ذلك؟

1/ الأقلية المسلمة و صراع الهوية و الاندماج :

بشكل عام يرصد المراقبون أربعة أنواع من السياسات الموجهة للأقليات المهاجرة:

1. سياسات الإبعاد التي طالت العديد من الأقليات من أصول مهاجرة إلى البلدان الأصلية التي ينحدرون منها، في إطار ما عرف " بسياسة إعادة التوطين ".

2. سياسات رفض الحالة الانعزالية لمثل هذه الأقليات وتوقعها حول نفسها في محيطات مجتمعية ضيقة وهشة والتي ساعدت بدورها على استفحال أعمال العنف وارتفاع مستويات الجريمة، وتطویر النزعة الإرهابية لدى شريحة عريضة من عناصرها.

3. السياسات التي نظرت إلى المجموعات المهاجرة على أنها أقليات مؤقتة، وأنها من المتوقع على المستوى المبدئي أن تعود أدراجها للبلدان الأصلية، وبالتالي عدم تمتعها بصفة الموهل لاستحقاقات المواطنة السياسية.

4. السياسات المقررة بالتعددية الثقافية كإحدى الخصائص المميزة للمجتمعات الأوروبية، مع الإحتفاظ بمساحات واسعة في تعزيز القدرة الأمنية مع مواجهة الآثار الجانبية للعناصر الأجنبية خاصة الإسلامية منها.

إن الصورة النمطية الموجودة حول الأقلية المسلمة في أوروبا، والتي ترتفع معدلاتها يوما بعد يوم لتشكل ما يسمى بـ " الاكزنوفوبيا " أي الكراهية العميقة للأجانب، وتساهم في انتشار ظاهرة التمييز العنصري في كثير من الدول الأوروبية، بل ساهمت حتى في تحريك صانع القرار الأوروبي في اتجاه الاقتناع بأن الهوية الوطنية معرضة لخطر الاختراق والتلطيخ من قبل المهاجرين.

لقد استطاع اليمين المتطرف أن يلتقط شعور الأوروبي بعدم الأمان وعدم الثقة في عالم متغير بسرعة، وخاطبه من خلال خطاب سياسي يؤكد الحاجة إلى الحفاظ على الهوية الوطنية ضد التأثيرات الخارجية قائم على التمييز بين "الأنا والآخر" "Us versus Them" وقدم التزاما بحماية الهوية الأوروبية من الثقافات الدخيلة.

يجب على صناع القرار والمفكرين والعلماء وصناع الرأي العام في أوروبا أن يدركوا ضرورة التخلي عن الأسطورة القائلة بأن أوروبا لها ثقافة وعرق ودين وتاريخ واحد مشترك. وتركز على ترسيخ مفاهيم التعددية الثقافية والعرقية والدينية، وتسلم بمبدأ التحام الهويات فيما بينها لتنتج مواطنة أوروبية متجانسة ويعد الإسلام جزءا فعلا على غرار باقي الثقافات الأخرى.

لقد تحول الخوف من الإرهاب من خوف عادي إلى خوف مرضي فيه نوع من الفوبيا " la phobie " المدعومة من البحوث الأكاديمية والخطابات السياسية والمنتجات الإعلامية المختلفة، بل تحول هذا المرض إلى مبحث نفسي واجتماعي في الفكر الغربي المعاصر، زادت حدته وتعاضمت بعد أحداث 11 ديسمبر 2001 بنيويورك، خصوصا بعد الحرب الثانية على العراق حيث صارت المسألة الأمنية الرهان الأساسي لكل دول العالم.

2/ الاسلاموفوبيا والفهم الحقيقي للإسلام: يرجع أصل مصطلح الإسلاموفوبيا الى اللغة اللاتينية " islamophobia " الخوف المرضي من الإسلام فهو تعريف ملغوم ينتمي الى حقل علم النفس، و بالتالي فهو دلالي الرهاب كمرض نفسي، أي ليس هناك ما يدعو إلى الفرع أو الخوف بل هو مجرد وهم يسيطر على المريض فيتخيل أن هناك تهديدا من أشخاص أو أحداث على مصدر الأمان لهذا المريض. يرى " انحرمار كارلسون" أن الشرط الجوهري لنجاح عملية اندماج المهاجرين يتمثل في قدرة الغرب على التعرف على الوجوه المختلفة للإسلام. و التباين بين المهاجرين المسلمين عوضا عن الاستسلام للمقولات و المفاهيم المغلوطة كتلك التي تقول : "عندما تلاشى الخط الأحمر تقدم الخط الأخضر ليحل مكانه." إن دعاوى من هذا النوع تحمل مخاطر استغلالها لتعزيز الإحساس بالوحدة الأوروبية، و هو الإحساس الذي بدأ بالتضاؤل الآن بعد أن وصل إلى ذروته في نهاية الثمانينات...³⁷

- إن السبيل الوحيد لقيام علاقات مشتركة حقيقية بين أوروبا والإسلام تقع على عاتق الطرفين معا إذ يتعين على الغرب أن يعترف بأخطائه الماضية و الحاضرة و يحترم كرامة المسلمين، أكانوا في بلدانهم الأصلية أو كانوا مهاجرين، ولدينهم و تقاليدهم والإعتراف بدور أجدادهم في بناء الحضارة الإنسانية عموما و الأوروبية خصوصا. و من جهة أخرى على المسلمين أن ينبذوا التطرف والإرهاب من أجل تجاوز الصورة الكاريكاتورية التي ما فتئت تقدمها عنهم وسائل الإعلام الغربية، و إرساء أسس مجتمعات

ديمقراطية معتزة بثقافتها و منفتحة على العوالم الأخرى بدل الإنطواء على الذات أو الاستمتاع بالتباكي على العصر الذهبي المفقود.

إن ما بنتا نشهده في أوروبا لم يعد فقط حالة كلاسيكية من " الإسلاموفوبيا " بل هو تحول انفعالي أي الانتقال من التخوف العادي من الآخر إلى الرهاب المرضي العضامي الذي يفترض الشعور بالتفوق الحضاري و الحدائي على غير الأوروبيين، و هو ما عبرت عنه جل فلسفات الغرب بتعبيرات شتى، تراوحت من تمجيد " الإنسان الأرقى " الارستقراطي " الأوروبي دون غيره (نظرية نيتشه). إلى وصف الحداثة الغربية بكونها تجسيدا نهائيا للعقل الكلي (نظرية هيغل). و انتهاء إلى إعلان "نهاية التاريخ" و " الإنسان الآخر " الذي يمثل التشكيل الغربي الراهن (نظرية فوكوياما).

لابد من التحرك من جديد في اتجاه الإنفتاح على كل العقائد و إقامة حوار كوني بين الأديان من أجل القطع مع الأحكام النمطية الجاهزة و السعي الى تكريس شعار " حوار الحضارات " بدل الصراع العدمي و التدمير الراهن.

3/ عزلة المسلمين في أوروبا و البحث عن الهوية :

وفقا لمقال كتبه " كونراد هاكيت " الباحث في مشروع " الدين و الحياة العامة " التابع لمركز "بيو الأمريكي للأبحاث"، و اعتمادا على دراسات و إحصائيات سابقة أصدرها المركز، فإن هناك خمسة حقائق ترسم و تحدد أفاق العلاقة بين المسلمين و القارة الأوروبية و خاصة دول الإتحاد الأوروبي.

1. أكبر عدد من المسلمين في ألمانيا وفرنسا.

2. مسلمو القارة الأوروبية في تزايد.

3. متوسط الأعمار أقل من الأوروبيين .

4. تفاوت الآراء بشأن المسلمين.

يقول مركز بيو، إن معظم سكان ألمانيا المسلمين ولدوا خارج حدود الإتحاد الأوروبي، إذ تعود أصولهم إلى تركيا والعراق وكوسوفو والبوسنة والمغرب. كما أن 3 ملايين مسلم في فرنسا ولدوا في بلاد أخرى أبرزها الجزائر والمغرب وتونس.³⁸

4/ تعقيدات اندماج الأقليات المسلمة في المجتمعات الأوروبية :

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، تحول تركيز النقاش و الجدل حول إمكانية اندماج المسلمين في المجتمعات الأوروبية و التعقيدات المصاحبة لذلك المتعلقة بمسألة الهوية، في الوقت الذي تشير فيه الإحصائيات حول عدد المسلمين في القارة الأوروبية بما فيها روسيا إلى ما يقارب 44 مليون مسلم أي في حدود 6% من عدد السكان.³⁹ الأمر الذي يبعث كثيرا من المخاوف خصوصا عند المتأثرين بظاهرة " الإسلاموفوبيا ".

يتصل اندماج المسلمين في المجتمعات الأوروبية بعدة جوانب منها السياسية والاجتماعية والدينية ، ومنها المرتبطة بالطبيعة التكوينية للمسلم في أوروبا وأخرى مرتبطة بمنظور وسلوك الأوروبي إتجاه المسلم . نحاول تحديد و تحليل هذه الجوانب في النقاط التالية:

1. تعتقدات الجانب الديني:

إن مسألة الربط بين الهوية الدينية و العرقية لدى المسلمين تعد من أهم الأسباب التي أدت إلى الخلط و التعقيد لدى الرأي العام الأوروبي، فكثير من المسلمين خصوصا المنحدرين من بلدانهم الأصلية يخلطون بين ما هو من الدين يجب المحافظة عليه و التمسك به و بين ما هو تقليد مرتبط بالعادات و موروثة الأجداد إضافة إلى التمسك بقضايا تتدرج ضمن باب الاجتهاد كقضايا مسلمات. نظرا لنقص أو انعدام الاجتهاد في كثير المسائل المرتبطة بالوقائع الراهنة سواء على مستوى الفرد أو الجماعة أو الأمة. مما فتح المجال للاجتهادات و الممارسات الفردية والجماعية في الغالب تكون مبنية على السطحية و الجهل بالدين.

مسألة الخطط هذه نجدها أقل لدى المسلمين المولودين بأوروبا أي أبناء الجيل الرابع بالتحديد، فهؤلاء و إن كانوا يعوزون إلى التربية و التكوين و المتابعة على المبادئ والقيم الأساسية للدين. فإنهم الأكثر تجاوبا واندماجا في البيئة الأوروبية وللد من هذا الخلط بين الدين وعناصر الهوية الأخرى لآبد من:

فتح باب الاجتهاد من قبل العلماء في إطار مؤسسي تضطلع به المنظمات الإسلامية العالمية في كثير القضايا التي يكثر فيها الجدل ومحل اختلاف بين المسلمين.

التفريق بين المسائل المرتبطة بالدين الإسلامي كمسلمات وبين المسائل الاجتهادية والمسائل المرتبطة بالعادات والتقاليد القابلة للتغيير والتحول.

فتح حوار واسع ومستمر حول هذه القضايا في إطار تنظيم الملتقيات والورشات العلمية في الجامعات الأوروبية والمؤسسات المختلفة.

الدفع بالبحث الأكاديمي في مسائل الأقليات المسلمة والهوية كمساهمة لتفكيك التعقيدات المرتبطة بها وإيجاد الحلول المناسبة لها.

2. تعتقدات الجانب السياسي:

المسلمون في أوروبا في حاجة كبيرة للاندماج في الأطر السياسية الحزبية والرسمية في أوروبا للمساهمة في تنمية و تطوير المجتمع الذي يعيشون فيه من جهة، و يساهمون في تحقيق و جلب حقوقهم كأقليات مسلمة أصبحت جزء مهم في التركيبة المجتمعية في أوروبا، ولتحقيق ذلك يتوجب على المسلمين تنظيم أنفسهم في أطر رسمية (جمعيات ، منظمات ، هيئات ، أحزاب ...).

المشاركة والمساهمة للمسلمين في أوروبا من خلال الأطر المجتمعية والسياسية المختلفة من أجل صالح مجتمعاتهم وبما يخدم مصالحهم ومصالح مجتمعهم كفيل بدرء الشبهات الموجهة لهم وسبيل لاندماجهم الإيجابي في المجتمعات التي يعيشون فيها. وفي هذا السياق تطالب " مارغريت لونيبنورغ " أستاذة الصحافة وعلوم الاتصال في جامعة برلين الحرة بمنح المسلمين في ألمانيا حيزا أكبر في الخطاب الإعلامي وتقديمهم وإشراكهم كعناصر فاعلة في الحياة اليومية، إجتماعيا وسياسيا وغيرها. وتدعو في ذلك إلى ضرورة الملحة لأن يعكس المشهد الإعلامي في ألمانيا التعددية الثقافية والدينية والعرقية التي تميز المجتمع.

3. تعقيدات الجانب الاجتماعي و الثقافي :

يعيش المسلمون في أوروبا حالة انعزال عن المجتمع وذلك بسبب عقدة الثنائية (الأنا - الآخر) والتي تكرست منذ عقود ساهم فيها الطرفان المسلم والأوروبي. والتي يتوجب على المسلمين تجاوزها والتخلص منها ومن ترسباتها من خلال المشاركة الايجابية في تأطير المجتمع المدني من جمعيات ومنظمات مدنية ومدارس خاصة، ولجان الأحياء الخيرية، وإبراز أخلاق الإسلام وسماحته من خلال المعاملة والسلوك، ونبذ كل ما من شأنه تشويه الإسلام والمسلم.

المعلوم طبعا أن الدول الأوروبية بشكل عام تحكم بأنظمة علمانية مع اختلافها من دولة إلى أخرى، لكن عموما تلتقي في فكرة أن الشأن الديني يجب أن يكون بعيدا عن شؤون المجتمع تماما وليس الشؤون السياسية فقط والعقلية الأوروبية عموما تفصل الدين عن شؤون المجتمع. والمسلمون باعتبار أن عدد من ممارساتهم الدينية ظاهرة لا يمكن إخفاؤها كالحجاب مثلا شكلت وأحدثت ردات فعل لدى بعض الجهات في أوروبا. وخاصة تلك التي تحمل مواقف راديكالية اتجاه المهاجرين والمسلمين خصوصا وأقصد أحزاب اليمين المتطرف.

ومن جهة ثانية على المسلمين أن يتعاملوا مع غيرهم وفق معيار المواطنة، أي تقاسم البلد الذي يعيشون فيه و تبادل المصالح و المنافع، وليس وفق ثنائية الإيمان و الكفر، فالرسول صلى الله عليه و سلم تعامل مع طوائف المدينة من منطلق المواطنة.

الخاتمة:

- تواجه الأقليات المسلمة في أوروبا عدة محاولات لطمس الهوية في مختلف المستويات الثقافية والتربوية والاجتماعية والإعلامية والتعليمية. تتطلب من المسلمين أفرادا وتنظيمات وكذلك دول مراعاة ذلك والقيام بواجب مساعدة إخوانهم للتصدي لهذه المحاولات، بكل الوسائل المتاحة ماديا وعلميا وإعلاميا.
- الأقليات المسلمة غير قادرة في الوقت الراهن مقابلة الهجمات الإعلامية ضدها وضد دينها، لافتقارها للوسائل الإعلامية الثقيلة الكفيلة بإسماع صوتها ودرء الشبهات عنها، وتفتقد أيضا المادة الإعلامية القوية المقنعة المستندة للعلم والاجتهاد وفقه الواقع.
- يأتي دعم الأقليات كضرورة إسلامية لإبراز الصورة الحقيقية الحية عن الإسلام باعتبار أن الأقليات المسلمة في أوروبا و الغرب يمثلون خط الدفاع الأول عن الإسلام.
- الاندماج الإيجابي المتوازن للأقليات المسلمة في المجتمعات الأوروبية ضرورة شرعية وواقعية. بما يحفظ للمسلمين التمسك بهويتهم وخاصة الدينية من جهة، والمساهمة في تحقيق مصلحة المجتمع الذي يعيشون فيه من جهة أخرى.
- إستراتيجية المشاركة في مجالات الحياة المختلفة السياسية/ الاجتماعية / الثقافية والاقتصادية في المجتمع الأوروبي السبيل الأنجع للأقليات المسلمة للاندماج الإيجابي.
- ضرورة الاهتمام بالجيلين الثالث والرابع خصوصا بترسيخ قيم ومبادئ الإسلام السمحة دون غلو من خلال إنشاء المدارس والجمعيات والمراكز الخاصة.

الهوامش:

- 1/ ابن منظور، لسان العرب، ج11 ، ص563
- 2/ حبيب كمال السعيد، نحو بناء إسلامي لمصطلح الأقلية ، البيان، المنتدى الإسلامي، لندن، 1990، ص96، 97.
- 3/ أمل يوسف عمر القواسمي، فقه الأقليات المسلمة في مسائل الأحوال الشخصية، دار النفائس للنشر والتوزيع، 2013، ط1، ص18
- 4/ The New Encyclopaedia Britannica ; vol.8 ,15th edition 1994,p 169
- 5/ بودوف رف.بوريكو: المعجم النقدي لعلم الاجتماع. ترجمة سليم حداد، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1986، ص50، 51.
- 6/ المصدر نفسه.
- 7/ Graham klinloch ; The sociology of Minority group relation, printice-Hall, Inc.N.j. 1979, pp5 -12.
- 8/ مجدي الداغر، أوضاع الأقليات والجاليات الإسلامية في العالم قبل وبعد 2001/9/11 ، المنصورة، دار الوفاء للنشر والطباعة والتوزيع، 2006، ص34.
- 9/ وليد سليمان قلادة، "حوار علمي حول الأقليات والإستقرار السياسي في الوطن العربي، السياسة الدولية، العدد92، أبريل 1988.
- 10/ سعد الدين ابراهيم، تأملات في مسألة الأقليات، دار سعاد الصباح. القاهرة، 1992، ص ص 44، 52.
- 11/ سورة الأعراف، الآية 86
- 12/ القرصاوي يوسف، في فقه الأقليات المسلمة، حياة المسلمين وسط المجتمعات الأخرى، دار الشروق، ط4، القاهرة ، 2003، ص15، 16.
- 13/ سورة الأنفال، الآية 26.
- 14/ الأقليات المسلمة وحقوق الإنسان، مرجع سابق
- 15/ الأقليات المسلمة وحقوق الإنسان، مرجع سابق
- 16/ إبراهيم القادري بوتشيش، مفهوم الهوية ومكوناتها الثقافية، <http://falsafiat.ahlamontada.net> ، يوم 2018/02/08

¹⁷ / رحيمة شرقي، الهوية الثقافية الجزائرية وتحديات العولمة، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة

قاصدي مراح ،ورقلة، العدد 11 ، 2013

¹⁸ / رحيمة شرقي، مرجع سابق

¹⁹ / حمد السعدون حميد، الغرب والإسلام والصراع الحضاري، دار وائل للنشر، عمان، 2002، ص104.

²⁰ samuel Huntington :Le choc des civilisations : , traduit de l'anglais (The clash of civilisations ; 1996). Odile Jacob, 2007, p219

²¹ / حمد السعدون حميد، نفس المرجع، ص47

²² / المرجع نفسه، ص19

²³ / المرجع نفسه، ص20.

²⁴ Fukuyama, Francis , *Identity, Immigration, and Liberal Democracy* , Op.Cit , P.11

²⁵ Fukuyama, Francis , *Identity, Immigration, and Liberal Democracy* , Op.Cit , P.15

²⁶ / :احمد نصري، آراء المستشرقين الفرنسيين في القرنين الكريم، الرباط : دار الطباعة القلم للنشر

والتوزيع، ط1، ص 2، 2009.

²⁷ / حلمي خضر ساري، صورة العرب في الصحافة البريطانية، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، ص67.

²⁸ / مرسي مشري، دور مسلمي أوروبا في تفعيل حوار الحضارات، ملخص أطروحة دكتوراه العلوم ، كلية العلوم القانونية والإدارية ، قسم العلوم السياسية، جامعة الشلف

²⁹ / ميلاد زكي، تركي علي الربيعو، مرجع سابق، ص 75،76

³⁰ / ميلاد زكي، تركي علي الربيعو، مرجع سابق، ص57.

* صدر عن دار الشروق، بيروت. تر: حسين أحمد أمين، 1983.

** صدر عن دار السعودية للنشر، جدة. تر: د. محمد فتحي عثمان، 1983.

*** صدرت الموسوعة في ثلاثة مجلدات بعد وفاته عام 1977.

³¹ / الأقليات المسلمة في البلقان الواقع والتحديات،

2014/12/24http://studies.aljazeera.net/reports/2012/06

³² / باسم الجاسر، مقال بعنوان: "المسلمون في الغرب بين الاندماج والتعرض"، جريدة الشرق الأوسط

الأربعاء،

24 فبراير 2010 ، العدد 11411

³³/ نيلسن يورغن، تر: شميظ وليد، مرجع سابق، ص ص 17، 18

³⁴/ ميلاد زكي، تركي علي الربيعو، مرجع سابق، ص 117.

³⁵/ القواسمي أمل يوسف عمر، مرجع سابق، ص 23.

³⁶/ العربي الجديد، مركز الجزيرة نت، 2016/06/14 ، www.alaraby.com / يوم 2018/02/08

³⁷/ يوسف كريم، المهاجرون المسلمون في أوروبا بين قضايا الهوية والإرهاب، المركز الديمقراطي العربي.

مجلة العلوم السياسية والقانونية ، العدد 3 ، 2017 .

³⁸/ محمد شناوة سليمان، عزلة المسلمين في أوروبا والبحث عن الهوية، www.m.ahewar.org

. 2018/02/08.

³⁹/ الجزيرة، دوتشيه فيله، مسلمو أوروبا بين النمطية وإشكالية الهوية، www.aljazeera.net .

2018/02/08